الشاعر المدني وقراءة في سفر الشعر والموت

عيسى فتوح

توفي في المهجر البرازيلي الشاعر المدني (قيصر سليم الخوري) شقيق الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) وعضو العصبة الاندلسية عن ستة وثمانين عاما ، قضى اربعة وستين منها في المهجر ، يسعى في سبيل العيش الكريم لاعالة اسرته الكبيرة ، لا يلتفت الى الشعر الا لماما ، لذلك كان نتاجه الشعري قليلا اذا قيس بنتاج اخيه القروي الذي اهتم بالشعر اكثر من التجارة ، وانصرف اليه دون ان تلهيه زوجة او يشغله ولد .

ولد الشاعر المدني في قرية البربارة التابعة لمنطقة جبيل في لبنان عام ١٨٩١ وتلقى فيها مبادىء القراءة والكتابة ، ثم درس سنة واحدة في قرية « المنصف » القريبة من البربارة ، والتحق بعدئذ ـ مع اخيه رشيد ـ بكلية سوق الغرب الاميركية فأمضى سنة واحدة انتقل في نهايتها الى مدرسة الفنون الاميركية في صيدا ، حيث درس اربع سنوات (١٩٠٦ ـ ١٩٠٩) وبعد تخرجه منها عمل في التعليم في مدارس البربارة ، وجبيل ، والبترون ، وطرابلس .

هاجر الى البرازيل مع اخيه رشيد في اول آب سنة ١٩١٣ ، واحترف التجارة ، لكنه سرعان ما تركها ليصبح أمينا على مزرعة احد اللبنانيين المهاجرين الكائنة في داخلية البلاد ، بعيدا عن المدينة وضوضائها ، فعاش قريبا من الطبيعة التي أحبها ونظم فيها أجمل قصائده مثل « هنة الغاب » و « أغاني الغاب » ، واختلط بالمزارعين البسطاء ... لكن افراطه في العمل اصابه بالذبحة الصدرية ، فاستدعاه أخوه رشيد الى سانباولو ليتلقى العلاج ، وبعد ان تماثل الى الشفاء ، وصف له الاطباء مناخ البحر ، فاختار بلدة سان فنسانت التي تقع على امتداد ثغر سانتوس ، فظل فيها حتى آخر حياته .

طبعت وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية ديوانه عام ١٩٦٦ تحت عنوان « ديوان الشاعر المدني ـ قيصر سليم الخوري » فجاء في مئة صفحة من القطع الكبير ، وكتب مقدمته اخوه رشيد الذي عاد الى الوطن منذ عام ١٩٥٨ بدعوة من حكومة الجمهورية العربية المتحدة آنذاك ، فلقي منها كل حفاوة وتكريم .

ـ ١ ـ

لقد كان حب الطبيعة عامة والغاب خاصة ظاهرة واضحة في أدب المهجر ، وبرزت اكثر شيء في أدب جبران ونعيمه ، لان المهجريين الذين نزحوا في غالبيتهم من قرى سورية ولبنان ذات الطبيعة الجميلة ، صدمتهم حياة المدن الصناعية الصاخبة المعقدة ، حيث لا يعرف الاخ اخاه ، ولمسوا كيف يصنع الانسان فيها ، ويعيش عبدا للآلة ، فلا ود ، ولا ألفة ، بل يلهث كالمحموم وراء المادة ليله ونهاره ، لذلك نفروا من هذه الحياة التي لم يألفوها ، وتمنوا العودة الى الريف البسيط الهادىء المتواضع ، في ظل الطبيعة التي تحنو عليهم كالام الرؤوم . يقول المدني :

قد تخذت الغاب مأوى طيبا نطق الوحش بها لكن صدق
تغسل الشمس أزاهيرا بها
قد شممت الشمس في جنح الغسق
وطيورا طالما عاينتها وهي ما بين فرادى وفرق
طائرات في فضاء واسع بجناح خافق لا عن قلق
لم يرعها بشر بعد فان جاءها الصياد لم تثن العنق

ويدعو في قصيدته « من أغاني الغاب » الى الفرار من المدن المكتظة المشغولة الى الطبيعة السمحاء ، حيث يمحي البغض ، ويتلاشى الحقد ، ويحيا الانسان صديقا للغدران التي ترويه ، والطيور التي تشجيه ، ويضحك للزهر المتفتح والعشب الندي :

فرارا الى أرض بها تلمس المنى
فللناس أوطار وللحر أوطار
هلم لرحب كل ما فيه ضاحك
ترويك غدران وتشجيك أطيار
اضاحك فيه الزهر والعشب والندى
أداعب منها ما أشاء واختار

والغاب فوق كل هذا يلهم الشاعر بالمعاني الفريدة والافكار العميقة السديدة ، ويوحي له بأحسن الشعر ،

ويحسب فيه انه قريب من خالقه الذي نظم هذا الكون أحسن تنظيم ، ورتبه أحسن ترتيب .

هي الغاب يغذو صدرها روح شاعر
فتنضج أفكار وتجزل أشعار
تحس يد الرحمن في حركاتها ...
فتخشع علما أن مبدعها جار !
ترى في عيون النجم فوقك حيرة
لدى قدرة الباري الذي ليس يختار

— ٢ —

وحنينه الى الغاب يؤدي به الى حنينه الى لبنان — موطن احبابه — الذي أبدع الله تكوينه ، فوهبه طبيعة خلابة ومناظر اخاذة لا اروع ولا أجمل :

واحر أشواقي للكرم والاعناب
من لي باطلاقي لموطن الاحباب
الهو وارفاقي بالزهر والاعشاب
وليأخذوا الباقي

وكيف لا تراه يحب لبنان ، ويهفو اليه بقلب وامق وعينين خاشعتين ، وهواء لبنان الشافي يحبب للانسان المرض ، وماؤه الصافي ألذ من الشراب ، وأطيب من الكوثر ؟:

هواؤك الشافي يحبب الاوصاب
وماؤك الصافي أشهى من الشراب

ولعل سعيه الدائب في سبيل الرزق ، واخفاقه وتعبه الشديد أوصله الى حالة من الشعور باليأس من الغربة التي لم يجن فيها غير العذاب والمرارة والالم ، فالهجرة بالنسبة له لم تكن الا سرابا خادعا لمع في أفق شبابه ثم اختفى :

بالله ما رأيت في المهجر الخلاب ؟
وما ترى جنيت فيه سوى العذاب ؟
ما أنت الا ميت سجل في كتاب
عنوانه يا ليت

وهو يتمنى ، نتيجة لهذا الاخفاق ، لو يستطيع العودة الى لبنان ، فما الفائدة من البقاء في المهجر فقيرا ، ما دام له وطن يؤويه على كل حال ، بعكس الغني الذي يعتبر كل مكان في الدنيا وطنا له ؟:

كل الغنى اوطان وخيره الاياب
اليك يا لبنان

كم من مهاجر اخفق في ذلك المنقلب البعيد ، ولم يستطع تحقيق طموحاته في الغنى السريع ، فانكفأ على نفسه ، وتمنى العودة ، لكن من اين له المال الذي يكفل له الاياب ؟ لذلك استسلم الى اليأس والقنوط . كانت الهجرة بالنسبة له حلما ورديا طالما داعب خياله وملأه بالرؤى العذاب ، وهذا ما حدث للشاعر المدني فراح يقول :

كلاكما غلطان يغتر بالسراب
بعض الغنى خسران وحلوه كالصاب

— ٣ —

لقد صور الشاعر المدني حياته في شعره أصدق تصوير ، وما لقي في دنياه من ألم وغربة وشوق وحنين وعذاب ، وكفاح في سبيل الرزق ، حاملا الكشة على ظهره ، وأي مهاجر لم يحمل الكشة ويتجول في طول البلاد وعرضها ، مناديا على سلعه الرخيصة ، ويقطع المسافات البعيدة بواسطة القطارات حينا ، او العربات التي تجرها الخيول حينا آخر ، فاذا وصل الى داخلية البلاد طاف على المنازل يعرض أشياءه ، فلنسمعه يقول:

يجوبون البلاد وكل ناء بعزم كالمهند في المضاء
وكل جزائهم بعض الرجاء

ويصف القطار الذي يحمل المئات من صناديق « الكشة » وكيف يتمايل ذات اليمين وذات الشمال تمايل السكران ، وينفث الغبار والدخان في وجوههم ، فاذا بهم لا يرون وجه السماء :

ويا لله حين ترى القطارا يميل بسيره ميل السكارى
يدور بهم يمينا أو يسارا وينفث في وجوههم الغبارا
فيحجب عنهم وجه الفضاء

وكثيرا ما يقضي حاملو « الكشة » لياليهم بلا نوم، ونهاراتهم بلا طعام ، حتى لكأنهم في صوم اجباري :

وكم ليل قضوه دون نوم وكم صوم قضوه كل يوم

فاذا حل المساء أووا الى فنادق رديئة تكتظ بالبعوض وتفص بالحشرات التي لا تسمع ولا تتكلم ، اما الاسرة التي يستلقون عليها فهي عبارة عن قماش محشو بالقش اليابس الخشن :

وكم نزل قديم العهد تمشي به الحشرات من خرس وطرش
أسرته عليها بعض فرش قماش قد حشوه ببعض قش

— ٤ —

مر بنا ان الشاعر المدني عمل امينا على مزرعة أحد المهاجرين . فاختبر حياة العمال القاسية ، وشارك

الفلاحين شظف العيش ، ورأى عن كثب صراعهم الدائب مع الارض ، واكتوى ، وهو يشرف عليهم ، بحرارة الشمس اللاهبة التي تستعر كالاتون ، فيدفعهم ذلك الى مواصلة السعي والكفاح ، ليكسبوا رزقهم الشريف بعرق الجبين ، لا بالمكر والحيلة والخداع :

يهنيك فلسك يا فلاح تكسبه
في حلبة الجد لا في حمأة الكذب

الشمس فوقك كالاتون مسعرة
في بدعها لك انهاض الى الدأب

ويبالغ في وصف جهدالفلاح حتى يقول أن ماء جهده كاف لان يسقي زرعه بدلا من ماء السحب . اما كفه ومحراثه فلا تستطيع الحقب وفاء ما لهما من دين على الناس :

يكاد زرعك مما بت تنزفه
من ماء جهدك يستغني عن السبب

لله كفك والمحراث كم لهما
دين على الناس لن يوفي مدى الحقب

ثم يعزيه بشقائه الذي لا يماثله في نظره الا شقاء وتعب العاملين في حقل العلم والادب فيقول :

هون عليك حباك الله تعزية
في العاملين بحقل العلم والادب !

كما يبين في قصيدة اخرى ما يلاقيه الاديب من عناء ، فهو يحيي ذكرى امته ، ويرفع شأنها ، ويشيد بأمجادها ومفاخرها . انها تسعد به ولكنه لا يسعد بها ، ويفني عمره في تحقيق امانيها ، الى ان يتلاشى جسده :

يحيا الاديب فتحيا معه أمته
وطالما سعدت فيه وما سعدا

يظل من روحه يسقي أمانيها
كأسا فكأسا الى ان يفرغ الجسدا

— ٥ —

ونراه يحقد على الغرب الذي اخذ عنا انوار العلم والمعرفة ، يوم كان يعيش في ضباب الوهم ، وظلام الجهالة ، ثم تنكر لنا ، وراح ينفث سموم حقده ، ويكشر عن نيوبه الزرق كالذئب النهم :

سقيناك يا غرب ماء الحياة فكان وفاؤك نفث الحمم
تعلمت رعي النجوم وفاتـ ـك ان تتعلم رعي الذمم
وقدكنت فيالجهل ترعى القطيع فأصبحت بالعلم ذئبا نهم

غايته من هذا التكشير ان ينقض على فلسطين ويلتهمها . كأنها مرعى تسمن فيه الاغنام ، لكن فلسطين سترتد على تلك النيوب الحادة بعزم لا يلين ، وقوة لا تقهر ، ولن يكف العرب عن المطالبة بحقهم فيها حتى يزيحوا الصهاينة الغاصبين . لان فلسطين هي روح العرب ، وقلبهم النابض بالحياة :

سننت النيوب كأن فلسطيـ ـن مرعى تسمن فيه الغنم
سترفض تلكالنيوب الحداد بضرب يهز الربى والاكم
فلن تتزحزح يا غرب حتى تزيح أنوف اليهود الهرم
فان فلسطين للعرب روح وجلد ولحم وعظم ودم

— ٦ —

رأينا من النماذج التي مرت بنا ان شعر المدني كان حلاصة تجاربه في الحياة . لم يتكلف في نظمه . ولم يتأنق في صياغته . بل كان يرسله عفو الخاطر ، ولا يسلط عليه ابواق الدعاية :

لا ألبس الشعر ألفاظا مزخرفة
فالفضل للماء لا للبرق في السحب

ولا أحمله بوقا ليعلنه
ولو تيسر لي بوق من الذهب

لم ينصرف النظم انصراف اخيه القروي ، لذلك لم يترك لنا غير هذا الديوان الذي حوى كل رصيده ، ولا ندري ما اذا كان قد ترك بعض القصائد التي يحتمل انه نظمها بعد طباعة الديوان ، ولعل سبب اقلاله يعود الى عدم تفرغه للشعر، وتراكم الاعباء المادية عليه ، فلم تترك له سانحة ، ومع ذلك فقد كان احد اعضاء العصبة الاندلسية المؤسسين ، وهو القائل فيها :

انا لمن عصبة ان اشرعت قلما
يشتف سر الدجى من شقه ألق

تعيش أقلامنا منا فليس لها
بالمدح والهجو باب منه ترتزق

من زارنا زار منا روضة أنفا
وعاد ينضح من اردانه العبق

والشاعر المدني مطارحات ومفاكهات شعرية لطيفة تدل على ظرفه وطرافته وخفة روحه وحبه للنكتة ، كقوله للصبايا اللواتي نصحنه بالوقار والصبر على هوان الشيب :

تضاحكن اذ داعبتهن وقلن لي
تحمل هوان الشيب غير كئيب

فقلت مشيبي لم يزل في شبابه
ولا أرعوي حتى يشيب مشيبي !

ومن شعره الساخر المرح وصفه بيته المتداعي الذي كان يسكنه في البرازيل ، فقد هوى نصف سقفه ، والنصف الآخر تمسك بالدعائم ، واذا هبت الريح عليه من جهة أسرع ليسنده من الجهة الاخرى خشية ان يسقط :

هوى من سقفه نصف ونصف
تمسك بالدعائم واستجارا

اذا ما الريح هبت من يمين
عليه هرعت أسنده يسارا

يساند بعضه أكتاف بعض
فيضحك من تساندة السكارى

فما من موضع السر فيه
كأن السر معروض جهارا

وأجمل ما في هذا الوصف تشبيهه نوافذ البيت بالعيون التي لا جفون لها ، وقد تعبت وهي تنظر بازورار، يخشى اذا خلع فيه ثيابه ان يراه المارون على قارعة الطريق ، لذلك تراه يغافلهم ويتوارى منهم خجلا :

نوافذ كالعيون بلا جفون وقد تعبت من النظر ازورارا

أغافل ان نضوت به ثيابي غريبا قد يمر به وجارا

والادهى من ذلك كله أنه يعيش فيه مع زوجته كالغريبين ، لا يجرؤ احد ان يدنو فيه من الاخر ، او يلامسه :

أعيش وزوجتي فيه كأنني من الغرباء،وهي من العذارى!

— ٧ —

وصور الشاعر بالاجمال تجنح الى الواقعية التي استمدها من صلب حياته في المهجر ، دون ان يعمد الى تزويقها او تلوينها ، فجاءت فطرية، بسيطة ، واضحة لا غموض فيها ولا ابهام نثرها في مواضع كثيرة من شعره كقوله :

كم مأزق اطلقت عزمي به اطلاقة المرهف من غمده

ويشبه غير المحسوس بالمحسوس توضيحا له ، كقوله في الخائف المضطرب :

لا يستقر الامن في قلبه كحامل الثعبان في برده
موزع الفكر بطيء الخطى كأنه يمشي الى لحده

وهو يميل الى النسج على منوال الامويين والعباسيين ولم ينزع الى التجديد في الشكل الا في قصائد قليلة جدا ، لان شعراء المهجر الجنوبي كانوا اقرب الى التقليد منهم الى التجديد . ويتمتع بشاعرية اصيلة ، لكن ظروف الحياة الصعبة، والمسؤوليات الجسيمة طمست شاعريته. وخنقت موهبته ، فانصرف عن الشعر لا يقرضه الا في السوانح ، لكنه عرف كيف يعتني بشعره ، ويصقله ، ويجيل النظر فيه ، وينتقي اجوده .

دمشق

الثقافة الجديدة

مجلة فكرية ابداعية عربية

تصدر في المغرب

تشرف عليها جماعة من المثقفين التقدميين المغاربة

المدير المسؤول : محمد بنيس

الاشتراك في الدول العربية وأوروبا ٥٠ درهما أو ما يعادلها

اشتراك المؤسسات المساندة ١٥٠ درهما أو ما يعادلها

العنوان : ص.ب ٥٠٥ المحمدية ـ المغرب